

وفي هذه البيئة التي تحوطها الحماية والرعاية نشأت ربة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضى الله عنها

ولكنها تفردت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة . فقد تربت على النعمة والخير ، وتدربت على العزة والكرامة ، وتعلمت القراءة التي لم يكن يتعلمها من نجباء الأبناء في بيوت السادة إلا القلة المعدودة .

فصح أن يقال إن الرعاية التي ظفرت بها ربه هذه الدراسة كانت هي خلاصة الكرامة التي هيأتها لبناتها حمية البداوة ، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضرة ومآثر الشرف والسيادة .

المرأة المسلمة

جاء الإسلام فبدأ من النهاية التي انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة ، وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضرة في معاملة المرأة العربية .

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات كما كان مقصوراً عليهن في آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ،

يتبعه من يرضاه ويهمله من يآباه

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها
أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه
جعلها مناط التكليف ووجه إليها الخطاب في كل شيء
كما وجهه إلى الرجال . إلا ما هو من خصائص عمل الرجال
في العرف المستقيم

فالمرأة في شريعة الإسلام إنسان مرعئ الحقوق والواجبات...
« ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة »

وكل امرأة أو فتاة - من العلية أو السوق - لا يصح
زواجها حتى يرجع إليها فيه « فلا تنكح الأيم حتى تستأمر
ولا البكر حتى تستأذن » . . . وعلامة إذنها السكوت كما جاء
في بعض الأحاديث .

ولها أن تملك ما تشاء وأن تبيع وتشتري ما تشاء ، وأن تشترك
في الإرث وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا تضرب
بالسيف . بل كان من حق الرجل أن يتخذها هي ميراثاً
ينتقل إليه كرهاً كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل الإسلام
ذلك حيث جاء في القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا لا يحل
لكم أن ترثوا النساء كرهاً »

وقضى بأن تباع النساء كما يبيع الرجال ، فلا تغنى
عن مبايعتهن مبايعة آباهن وأزواجهن وأوليائهن . ونص القرآن

الكريم على ذلك حيث جاء في سورة الممتحنة « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبایعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة ، وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد . . . « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب . ألا ساء ما يحكمون » .

ومن الآداب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه من نحوها عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون في احتمالها خيراً له ولها :

« وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .
لأ

وكانت وصايا النبي (ص) على منهاج أوامر القرآن في إنصاف المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول : « خيركم خيركم للنساء » . . . و « ما أكرم النساء إلا كريم

ولا أهانهن إلا لثيم»

وأسند الوصاة بها في بعض الأحاديث إلى وحى جبريل حيث قال :

« ما زال جبريل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه يحرم طلاقهن » .

والتعليم الذي كان في بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين الرجال فضلاً عن النساء جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » واستحبه عليه السلام حتى للإماء حيث قال : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

هذه هي المتزلة التي تبوأها المرأة في الشريعة الإسلامية . وهذه هي المعاملة التي أوجبها آداب الإسلام على المسلمين كافة ، وهي أرفع من كل أدب ترقى إليه الجاهلية في الجوانب التي تهذب فيها معاملة المرأة بين ذوى السيادة والحضارة من أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف . ومهما يكن من رأى في موقف العصور الحديثة من المرأة - وهو ما نعرض له في ختام هذا الكتاب - فالذى

لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بلغتها بين العرب أو بين الأمم الأخرى ، وأن المسلم الذى يعمل بدينه يوليها من البر فوق ما طلبته لنفسها ، لو أنها كانت فى زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

ولم تكن تلك غاية المرتقى .

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهى على هذا موكلة بالتعميم الذى يستوى فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإنجاز ، كأن الإنجاز هو المثوبة التى تغنى عن المثوبة الموعودة . وما هنا تفاوت المراتب وترقى الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، تستبق النفوس حتى يكون العمل المفروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهى المرتبة التى سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له فى طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل

مخلوق حي ولا سيما الضعفاء . وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة في طلب الخير والكمال . فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء » .

وبلغ من ذلك أنه يأوى إلى البيت « فيكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة في منزلها فقال : « خدمتك زوجتك صدقة » وكان أكيس رجل في معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعاً في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس ضحاكاً بساماً » كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ومن المبالغات المألوفة في تناهي الرحمة أن يقال « إنه أرحم به من أمه وأبيه »

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهن وأمهاتهن حتى الذين اشتهروا بالحدب الشديد على ذوى الرحم كأبي بكر الصديق رضوان الله عليه .

ففي الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام . فقال : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قلت : لا . ذلك رجل هين لين يقضى لك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم . فأرسل إلى أبي بكر فجاء ، فقال :

اقصصى ! فقلت : بل اقصص أنت . . . فقال : هي كذا وكذا . . . فقلت اقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمني وقال : تقولين يا بنت أم رومان اقصد ؟ من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟ فجعل الدم يسيل من أنفي ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نرد هذا . . . وجعل يغسل الدم بيده من ثيابي ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه . . . »

وكان بره بمن مات من أزواجه أكرم من بره بمن يعشن معه ويراهن كل يوم . فلما ماتت زوجته الأولى خديجة رضى الله عنها حزن عليها وسمى العام الذى قبضت فيه « عام الحزن » ووفى لذكرها طوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تغار منها وهى فى قبرها أشد من غيرها من زوجاته اللواتى يعشن معها فى كنفه ، وقالت له يوماً . هل كانت إلا عجوزاً بذلك الله خيراً منها ؟ فقال لها مغضباً : « لا والله ؛ ما أبدلنى الله خيراً منها . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء »

وإن هذا الوفاء لذكرى الزوجة الغابرة لخليق أن يرضى المرأة .— حين تنسى غيرها — أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفضيل فى حياتها بلحماها وشبابها ونعيم عشرتها وصفاتها

ونحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب — عائشة بنت الصديق — إنها لوحظت في آداب العرب والإسلام كأنها الوجهة التي اتجهت إليها هذه الآداب في طريق الارتقاء والتهذيب .

فمن قسمتها في آداب العرب النسائية أنها نشأت في خلاصة تيم الذين اشتهروا بظرف الرجال وتدليل النساء ومن قسمتها في الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ، وتجاوزتها فملك الحظوة التي يضيفها على نسائه نبي كريم ، يتجاوز الحقوق المفروضة صعدا في معارج الكمال ، وكانت هي بعد هذا صاحبة الحظوة الأولى بين هؤلاء النساء .

إنها لمجدودة من بنات حواء

ولهذا الجسد السعيد شأن أى شأن في تاريخها الذي اتصل

بتاريخ الإسلام

المرأة الخالدة

إن المرأة التي اجتمعت لها خلاصة الرعاية في آداب أمة من الأمم لذات شأن في تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب .

وأعظم من ذلك شأن المرأة التي كُتبت لها خلاصة الرعاية في دين من الأديان ، والتي اشتركت في سيرة النبي المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه في أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التي لم تلقها واحدة من النساء .
 والسيدة عائشة رضى الله عنها هي هذه ، وهى تلك .
 هى المرأة التى لوحظت فى آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى .
 وهى المرأة التى قال عنها النبي عليه السلام إنها أحب الناس إليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التى عرفوه بها فى دينه ودنياه .
 وكلاهما شأن عظيم يبوئ الإنسان بين قومه مكاناً ملحوظاً من جوانب التاريخ .

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهتم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، أو للسبب الآخر المتمم لهذين السببين ، لأنها المرأة فى تكوينها الأصل الذى خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هى المرأة التى تتمثل فيها الأنثى الخالدة التى لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الإنسانية كل ما قدر لها من دوام وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظمة وكل عظيم فهما يقل القائلون فى غرض المؤرخ من سير العظماء

فالحقيقة التي لا ريب فيها عندنا هي أن الغرض الأول أو الغرض الذي تنتهى إليه جميع الأغراض — هو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظيماها والنفاذ إلى الجانب الإنسانى من كل نفس تستحق التنويه والدراسة .

وما من علامة هي أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة .

فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة في التعريف بصاحب السيرة أو صاحبها إذا نظرنا فرأينا أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .

ونحن نعلم أننا تائهون في الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا إلا سراويل العظمة وأقواس النصر ومواكب الرهبة والخشوع نحن إذا فهمنا النبي نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره وضمايرنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلا وكفى فإنما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس إلينا وضآلتنا بالقياس إليه .

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه في الأمة ومركزنا وبين الحقوق التي له والواجبات التي عليه ، والحقوق التي لنا والواجبات التي علينا .

ولكننا إذا فهمنا النبي إنساناً فقد فهمناه كله وفهمناه على حقيقته التي تعنينا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ،

لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .
وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذى
شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال . هذا هو الإنسان ! فإذا هم
الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم
خالدون خلود الإنسان من وراء الأقوام والأزمان
والسيدة عائشة رضى الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة
الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها .

فضلها فى الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التى
نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا فى كل أنثى .

وأنها ترينا النبى فى بيته فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة
إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته
كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من
آدم وحواء .

وفضلها على الحملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال
تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هى
الأنثى الخالدة فى كل سمة من سماتها .

هذه هى الأنثى الخالدة فى غيرها ، وهذه هى الأنثى
الخالدة فى دلالها ، وهذه هى الأنثى الخالدة فى كل ما عرفت
به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع

وحب المكايدة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول
وهي قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التي تتراءى في طبيعة المرأة
فهو باد في خبر من أخبار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو
وأصدق ما يكون في طبائع النساء .
والغيرة في طبائع النساء ألوان :

تغار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه ولو شغلته الذكرى
ولم تشغله المودة الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه
كله ، وهي تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ،
ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الحميلة وإن لم تنافسها على رجل
تحبه ، وتغار من شريكها في رجلها كائناً ما كان حظها
من الجمال ، وتغار من كل مزينة غير الجمال ما كان فيها
سبيل إلى الخطوة في القلب الذي تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه
و « الأنثى الغيرة » في جميع هذه الألوان من الغيرة
النسائية ماثلة هنالك في سيرة عائشة كما روتها هي وكما رواها
غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذي
ينبغي لها والحق النبوي الذي هي جاهدة جهدها أن توقره وترعاه
كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبي
بالسيدة عائشة

ولكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتي يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبي بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها

وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة في ذلك فقال : إن خديجة أوصتني بها . . . فقالت مغضبة :

خديجة . خديجة . . لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة ، فغضب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها - أم رومان - عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ؛ مالك ولعائشة ؟ إنها حديثه السن وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها : ألسن القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسأله مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيراً منها ؟ فأسكتها قائلاً : « والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبتني الناس ، وواستني بماها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها »

أما شريكاتها اللواتي كن يعايشنها في بيت النبي فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيه النبي عندها فضلاً عن الغيرة من الجمال أو الملاحظة

تعود عليه السلام أن يستطيب العسل الذى تهيؤه له زينب بنت جحش وهى من أجمل أمهات المؤمنين وأحظاهن عنده . فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبغضاه فى عسلها وقالت فيما روته عن نفسها : « . . . فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغاير ؟ وهى طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة ، ولم يكن أبغض إلى النبي عليه السلام من رائحة كريهة . . . فلما دخل عندها رسول الله قالت . إني أجد منك ريح مغاير . قال : لا : ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود إليه !

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهى ، وهى فى الأصل إسرائيلية من أهل خيبر . فنفست عليها السيدة عائشة هذه الإجادة ولم تكتم غيرتها منها بل هى التى روتها ومن حديثها عنها عرفناها . قالت « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو فى بيتى فأخذنى أفكل - أى قشعريرة - فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام »

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن بالمنافسة والمغايرة . وهى بالبداهة دون غيرتها من الزميلات اللواتى كن ينافسها جهرة ويكاشفن النبي عليه السلام بالشكوى عن تفضيلها

عليهن في المودة والحظوة ، وعلى رأسهن أم سلمة التي شهدت على نفسها والنبي يخطبها أنها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ؛ وتغضب عائشة من هذه المجاملة على علمها بمكانتها عنده . قالت :

دخل على يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :
أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة
قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قلت : يا رسول الله ألا تخبرني عنك لو أنك
نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت
ترعى ؟

قال : التي لم ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من
نسائك قد كانت عند رجل ، غيرى . . .
فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شربة عسل تستطاب عند إحدى
الزميلات ، أو مجاملة لإحداهن جبراً لخاطر ومدارة لغيرة -
تثير هذه المنافسة وتغري بهذه المؤامرة فليس من العسير أن
نفهم كيف تكون الغيرة التي تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة
حين يرزقها النبي من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن

سنوات ، وهو شديد الكلف بها والتطلع إليها
تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات
وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه إبراهيم من
مارية القبطية ، وكانت على هذه المزية التي امتازت بها
جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرها
منها لهذه الأمومة التي تفردت بها بين تسع نظيرات
قالت كتب السير : وغارت زوجات النبي ولا كعائشة
لأن عائشة رضى الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى
التي ترفعت إليها « ماريّا » بأمومتها ، فهي أحق بالغيرة على
تلك المكانة من سواها
ولا ريب في حب عائشة للنبي ولا في سرورها ورضاها
بما يسره ويرضيه ، ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية – والطبيعة
النسوية – بما يرهقها إذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير
غيرتها ، وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن يصرف حبها
عنه ، أو ينقص سهمها فيه
فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه
ومن الطبيعي كذلك أن تغار من السرور الذي يحبه
إلى غيرها ، لأنها تحبه
وقد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان
أشد اقتراب

وهذا الذى حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية ،
وهى فتية جميلة رضية ، يدينها من قلب النبي شتى المزايا ،
وأولاهها هذه المزية التى تربي على كل مزية

فلما رأت عائشة فرح النبي بالوليد الموموق وأحست شغف
النبي به جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه
المغالبة ، وقال لها يوماً : انظري إلى شبهه ! . فلم تملك لسانها
أن تقول : ما أرى شيئاً . . . وربما أعجبه نمو الوليد ولفتها
إلى بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل
عجبه ، لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب
إبراهيم !

وكان غضب النبي من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ،
لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ولا يعذرها
فيما ينبغي لها أن تتوخاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التى
أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه

فقلما لامها فى شيء يمسه من غيرتها

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات
هذه الغيرة التى تمس بها أناساً آخرين . فيؤاخذها مؤاخذة
المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ما آخذها عليه

عابت أمامه زوجته السيدة صفية فذكرت من عيوبها أنها
قصيرة . فكره أن تمضى فى حديثها وقال : يا عائشة ؛ « لقد

قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب
من هذه الفكاهة التي تسوغ وتستملح في ذوق كثيرين ، ونهاها
أن تحكى الناس حكاية استهزاء

* * *

ومن « الأنثويات » الخالدة في طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها
وهي أشوق ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة

وللسيدة عائشة نوادر شتى في هذا الدلال الذي شابهت
به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التي لم يبلغنها
غضب النبي من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلحافهن عليه
بطلب المزيد من النفقة والزينة ، فأقسم ليهجرهن شهراً وشاع
بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أى رجة ، لأن
تطليق النبي زوجاته جميعاً هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام
في بيته ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التي كانت تجمعها
صلة المصاهرة . وفي وسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة
إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع
إلى بابه يدقه دقاً شديداً ويسأل عنه في فزع : أثم هو ؟ فلما
خرج إليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر :
ما هو ؟ أ جاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول .

طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً . فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النبأ ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى لما بلغهم من طلاق نساءه

ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من هذه الرجة ، وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها من قبل أثرٌ في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فماذا سمع منها أول ما سمع ؟

قالت : يا رسول الله أقسمت أن لم تدخل علينا شهراً وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً ! فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً ؟

كلا . فقد عدتهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول النبي كم مضى وكم بقى على ظنها من أيام العقوبة . ولكنها الأنثى

الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأُنثى الخالدة في هذا الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال

ولغط المشركون بقصة الإلفك التي سخفوا بها غاية السخف ، فلم تعلم بها السيدة عائشة إلا بعد شهر من شيوعها وهي تملأ أرجاء المدينة

فلما سمعت بها ذهبت إلى بيت أبويها تسألها عن هذه القصة التي لم يخبرها أحد بشيء عنها وهي في بيت زوجها الكريم قالت السيدة عائشة بعد تفصيل ما سمعت : « فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فقد بلغني عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه

» فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ! فقال : والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله

» فقلت لأُمى : أجبى عنى ، فقالت كذلك . والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله

» قلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن —

إني والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم
 وصدقتم به ، فإن قلت لكم إني بريئة ، والله يعلم أني بريئة ،
 لا تصدقوني . ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أني بريئة ،
 لتصدقوني وإني والله ما أجد لي ولكم إلا كما قال
 أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون
 » ثم تحولت فاضطجعت على فراشي

» فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل
 البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان
 يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل
 الجمان — أي الدر — من العرق في اليوم الشاتي
 » فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة
 تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ؛ أما الله فقد برأك
 » قالت أمي : قومي إليه

» قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله . هو الذي
 أنزل براءتي »

ولو تجمعت الأنوثة الخالدة في امرأة واحدة لما كان
 لها من شأن هو أشبه بها من شأن عائشة في هذه القصة :
 ضنوا عليها بكلمة التبرئة التي تلهفت عليها فهي تدعهم
 يضمنون بها كما يشاءون ، ويسكتون أو يتكلمون كما يريدون
 وتضطجع على فراشها ثم تجيء التبرئة التي تلهفت عليها ؛

فيجئ معها الغضب والإدلال بالعزة المجروحة .

« قومي إليه . . . لا والله لا أقوم إليه ! » . . . لم ؟
أهو الذي أغضبها ؟ كلا . ولكنها غصبي ولا بد للغصبي
من استرضاء . ومن أولى من الزوج الكريم باسترضائها !
وكم كانت للزوجة المحبوبة من مغاضبات تعرض بها
ولا تظهرها ويبتسم لها النبي لأنها لا تخفى عليه وهي لا تعنى
بها أن تخفى عليه !

قال لها عليه السلام يوماً : « إني لأعلم إذا كنت عني
راضية وإذا كنت على غصبي . فقالت : من أين تعرف
ذلك ؟ قال : أما إذا كنت عني راضية تقولين لا ورب محمد !
وإذا كنت على غصبي قلت لا ورب إبراهيم . قالت :
أجل والله يا رسول الله . ما أهجر إلا اسمك . » .

أليس هو أسلوب الأنثى الخالدة في مغاضبتها وهي تحب
من تغاضبه وتعرض له بالغضب وتعنى أن يفهمه كأنه التصريح
الذي لا مواربة فيه

ولابد من المواربة على كل حال

* * *

وما من سمة في الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت
السيدة عائشة وقد صدقت فطرتها فيه ، وإن كانت لتروض
نفسها تلك الرياضة العالية التي تجمل بزوجة محمد وبنت

الصديق وأم المؤمنين .

فإذا عرضت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت جارية حديثة السن ، أو حدث ذلك بلهلى وصغر سنى ، وربما راقها أن تختار من الروايات التى ذكروها لها عن سنّها أقرب تلك الروايات إلى التصغير وأولها أن تميزها بين زميلاتها بميزة الشباب

وقد تكون وحدها فى بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها . قالت : « ولبست ثيابى فطفقت أنظر إلى ذيلى وأنا أمشى فى البيت وألتفت إلى ثيابى وذيلى . فدخل على أبو بكر فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقتته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعته فتصدقته به . قال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك »
وهى عائشة كاملة فى هذه القصة الصغيرة : هى حواء التى تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهى أم المؤمنين التى تحب أن ينظر الله إليها ، وهى هنا أيضاً حواء تطمح إلى زينة أعلى وأعلى

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة العربية ، والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة فى كل زمان